عشائر الشام

- ١ -

من الموضوعات التي أولع بها أدباء العربية قديماً وأطالوا البحث عنها والكتابة وقصر اخلافهم الحاضرون في ذلك موضوع عشائر الأعراب او البدو[1] وإذا كان بعض الفضلاء في العراق وفي مصر وفي جنوبي الشام « فلسطين وشرقي الأردن » ممن سنذكر أسماءهم قاموا اخيراً بقسط محمود من ذلك فإن امثالهم في شمالي الشام لم يحفلوا به حتى الآن .

على حين ان هؤلاء البدو هم امامنا بين ظهرانينا اوعلى مقربة منا ، ولهم فوق صلات الجنس واللغة والدين والتاريخ التي تربطنا وإياهم مكانة في أمورنا الاقتصادية والقومية . فكل سمننا واكثر لحومنا التي نأكلها والأصواف التي ننسجها والمطايا التي نركبها منهم . وقسم كبير من سكان الحواضر عندنا كدمشق وحمص وحماة وحلب ودير الزور يعتمد في تجارته ومرتزقه من الماشية ومنتوجها على شركائه وعشرائه من هؤلاء البدو .

وقد كتب لي ان اتجول في املاك دولة الشام ، وهي على سيف البادية وجل فلاحيها وكل الضاربين في براريها من البدو ، وان اغشى منازل هؤلاء فانظر واسأل وادون واقارن ذلك بما اجده في الكتب العربية والافرنجية الباحثة عنهم حتى اجتمع لي طائفة من اخبارهم . على انني اعترف بقلة مانهلت من هذا البحر ومادونت لصعوبة الاتصال بالبدو وعسرة استقراء الحقائق منهم مما يتيسر لرواد الافرنج ومستشرقيهم ولاسيما لعمال دوائر الانتداب منهم اكثر منا . لأجل هذا فقد قصرت هذه العجالة على ذكر مقدمات وجيزة عن تقسيم عشائر البدو في عهدنا الى طبقات وعن تاريخهم القديم والحديث ثم وصفت البادية

(١) الأعراب بالفتح اهل البادية من العرب والواحد أعرابي بالفتح ايضاً وهو الذي يكون صاحب نجعة وارتياد للكلأ ، وقيل من نزل البادية وجاور البادين وضمن بظاعنهم فهم اعراب ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي الى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء (عن المصباح المنير للمقري الفيومي) ، وقد اصطلح الشاميون على تسمية الاعرابي بالبدوي وعلى تسمية الريفي بالفلاح ويجمعونه على فلاحين وفلالبح كما يجمعون العربي على عربان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وخصائصها ، ثم انتقلت الى البحث الأصلي وهو : تعداد العشائر وتعريف منابتهم ومنازلهم وفرقهم ومبلغهم من العدد والقوة ، وتركت البحث عن عاداتهم وتقاليدهم واخبارهم الماضية والحاضرة الى فرصة اخرى .

ما أُلف عن البدو

من الباحثين عن أنساب البدو واحوالهم بين أدباء العرب القدماء وجدت ابن عبد ربه الاندلسي المتوفى في سنة ٣٢٨ في كتابه العقد الفريد ، وابي الفرج الاصفهاني المتوفى في سنة ٣٥٦ في كتابه الأغاني ، وابي عبيد البكري المتوفى في سنة ٤٨٧ في مقدمة كتابه معجم ما استعجم ، وابن خلدون المتوفى في سنة ٨٠٨ في الجلد السادس من تاريخه الكبير المسمى العبر ، والقلقشندي المتوفى في سنة ٨٢١ في الجلد الرابع من صبح الأعشى ، في كتابه الثاني المسمى نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب المطبوع في بغداد وفي كتابه الثالث المسمى قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية يبحث في قبائل مصر في زمنه . وقيل ان في احد الأجزاء التي لم تطبع بعد من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري المتوفى في سنة ٧٤٨ ذكراً لمنازل العرب كما كانت في مصر على عهده ، وقيل ايضاً ان لابن حزم الظاهري المتوفى في سنة ٤٥٦ كتاباً اسمه « جمهرة النسب في معرفة قبائل العرب » وهو من مخطوطات دار الكتب المصرية ولم يتسن لي بعد الاطلاع على المخطوطات المذكورة ، وإن كانت تشمل العصور والأماكن البعيدة عن موضوعي وبحثي .

ومن الباحثين المتأخرين ابو الفوز السويدي البغدادي في رسالته « سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب » المطبوعة على الحجر في الهند سنة ١٢٩٦ لكن ابحاثها قديمة ومقتبسة عن نهاية الأرب للقلقشندي وترتيبها غير موفق بالغرض ، والسيد شكري الالوسي في كتابه « بلوغ الأرب في احوال العرب » المطبوع في بغداد سنة ١٣١٤ في ثلاث مجلدات خصها بشرح اخبار عرب الجاهلية وعاداتهم وآدابهم مما هو بعيد عن مطلوبنا واحسن الكتب العربية الحديثة كتاب « خمسة اعوام في شرقي الاردن » المطبوع في حريصا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(لبنان) سنة ١٣٤٥ للارشمندريت بولس سليمان بسط فيه آداب بدو شرقي الاردن في عيدنا وقضائهم وديانتهم وعشائرهم ، وكتاب « القضاء بين البدو » المطبوع في القدس سنة ١٣٥٢ للسيد عارف العارف قائم مقام بئر السبع بسط فيه اخبار بدو بئر السبع في عهدنا ايضاً وطبائعهم وعاداتهم في القضاء والقتل والسرقة والمرأة والحيوان والرحيل والتجارة والطب والعقيدة ، وكتاب « تاريخ شرقي الأردن وقبائلها » للفنتنت كولونل ج . بيك الانكليزي وقد عربه السيد بهاء الدين طوقان وطبعه في القدس سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة طبع في مصر سنة ١٣٥٢ ، وكتاب « قبائل العرب في مصر » لأحمد لطفي السيد طبع في مصر سنة ١٣٥٤ ، وكتاب « عشائر العراق » للسيد عباس العزاوي المطبوع في بغداد سنة ١٣٥٦

ووجدت من الافرنج الباحثين عن البدو الرحالة بركهارت السويسري[1] صاحب كتاب « رحلة في بلاد العرب » وقد وافى هذه البلاد في سنة ١٢٢٤ هـ وعد في كتابه ما صادفه في تلك الحقبة من عشائر البدو في الشام والحجاز وأحصى نفوسها وذكر أطوارها وأساليب معيشتها ومناطق رعيها وكل ما يتعلق بها بتدقيق واف . والمستشرق موزيل التشيكوسلوفاكي[2] كتب بالألمانية عن بادية العرب بحث فيها عن عشائر عنزة ولاسيما عن الرولة وتقاليدهم ، وكان أقام بينهم سنيناً عديدة وكانوا يدعونه الشيخ موسى الرويلي وللسائحة الانكليزية اللادي آن . بلونت[3] كتاب في مجلدين عن « عشائر البادية الفراتية » طبع في لندن سنة ١٨٧٩ كما أن لها كتاباً آخر اسمه « رحلة إلى نجد » ترجم الى الافرنسية ، وللكابتين رينو[4] الافرنسي رسالة صغيرة عن « بدو البلاد التابعة حكومة دمشق » طبعت في سنة ١٩٢١ ولكومندان موللر[5] كتاب اسمه « في بلاد الشام مع البدو » طبع في سنة ١٩٣١ ، وهذان الضابطان كانا من مدراء الإدارة الافرنسية الخاصة

(1) Jean - Louis Burkhardt. Voyages en Arabie. (2) Aloes Musil, Arabia deserta, 1927. (3) Lady Anne Blunt, Bedouin tribes of the Euphrates, Murray, 1879. (4) Capitain Renaud, Les Bedouins de mouvence du gouvernement de Damas, 1921 (5) Victor Muller, En Syrie avec les Bedouins, 1931

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بمراقبة العشائر . وثمة كتابان افرنسيان للأب جوسن الدومينيكي[1] احدهما عن عادات البدو في بلاد موآب وثانيهما عن عشيرة الفقرا احدى العشائر الكبيرة في تلك الأنحاء ، وللسيو آلبر بوشمان[2] كتاب اسمه « منعة المعيشة البدوية » فيه وصف ألبسة البدو وفرشهم وأوانيهم ومضاربهم . واحدث الكتب الاوربية وأكملها عن عشائر الشام هو ما نشره أخيراً المستشرق البارون فون اوبنهايم[3] المطبوع في ليبزيغ سنة ١٩٣٩ ، ولعل هنالك كتباً أخرى لم أطلع عليها فاكتفيت بذكر ماعلمت .

طبقات البدو

لنا أن نقسم بدو زماننا في شمالي الشام حسب عراقتهم بالبداوة واطوارها وبعدهم عن عن الحضارة ومنازلها الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى : أعراب البادية او البدو الأقحاح ويوصفون في اصطلاح الافرنج بالبدو الاصليين او بالبدو الرحل ، وهم اهل الوبر ، أصحاب المضارب او الخيام او بيوت الشعر لسكناهم والخيل لركوبهم والإبل لمعاشهم . فالإبل مراكبهم التي يحملون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم ويأكلون لحومها ويقتاتون بألبانها ويكتسون وينسجون بيوتهم من أوبارها ويقايضون عليها في المبايعات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراضات ومهر الزوجات ، فهي في الجملة مصدر غناءهم ومبعث هناءهم ، كما انهم سبب معاشها ووجودها ، لا يدرون أهي خلقت لهم وقبلهم ام هم خلقوا لها وقبلها ، ولا يدفعون للدولة عنها سوى ضريبة تدعى « الودي » ، دأبهم الظعن بين قفار البادية وارياف الحاضرة فراراً من حمارة القيظ تارة وصبارة البرد اخرى وارتياداً لمواقع القطر وانتجاعاً لمنابت الكلأ والمراعي الصالحة للابل فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب الكلأ وابتغاء المياه والدفء في اماكن اخرى فلا يزالون في حل وترحال يقطعون

(1) P. Jaussen, Coutumes des Arabes en pays de Moab. Coutumes des Fuquaras, 1920. (2) Alber Bouchman, Les meubles de la vie Bédouine. (3) Die Beduinen, Max Vonoppenheim . Leipzig. 1930

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥٠٠ و ٦٠٠ واحياناً ٧٠٠ — ٨٠٠ كيلو متر فيصلون في الشرق الى بوادي العراق او في الجنوب الى فيافي نجد ثم يعودون الى مشارف الشام او الى ما يقاربها .

وهواهم في البادية وفيافيها الشاسعة وآفاقها الواسعة وحريتها المطلقة ووحشتها الرهيبة ونباتاتها وحيواناتها الغريبة ولا يزالون يمدحون البوادي وشظف عيشها في منظوم كلامهم ومنثوره . وهم يحتقرون اهل الطبقة الثانية ويدعونهم « رعية » و « شاوية » او « شوايا » لاقتنائهم — الشياه والمعز ، يعدّون ذلك من اكبر العار اذ تمنعهم عن الاجفال في البيداء ومدافعة الاعداء — ويتهنون اهل الحضر والقرى ويدعونهم « الفلاليح » لانهم ساكنون بيوت الحجر وممتادون على الرفه وحماية الدولة ، ومتكلون على الحرث والكرث وهم دائماً يحملون السلاح ويتلفتون في الطرق ويتجافون عن الهجوع الا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتفردون في الصحراء وثقتهم بأنفسهم كثيرة حتى صار البأس لهم خلقاً . ولذلك كان أكثر البدو توغلاً في القفر اشدهم بأساً واجرأهم على تحمل المشاق . وهؤلاء البدو الشعث الغبر الجفاة لا يغشون القرى والمدن الا للضرورة في سني المحل والظمأ او لابتياع حاجاتهم وبيع الذكور من إبلهم ، وبيع اصوافهم ، وهم لجفوتهم وقسوتهم وجهلهم حق الغير في تعبه ونشبه كثيراً ما يلحق اهل الضياع والمزارع حين مرورهم بها مضرات من افسادهم السابلة ورعيهم الزرع مخضراً او انتهابه قائماً وحصيداً ، ويتفاقم ضررهم حينما يرون من فوضى الأحكام ومسامحة ذوي السلطان فرصة . وهؤلاء في بلادنا عشائر شمر في بوادي الجزيرة الفراتية ، وعشائر عنزة في بوادي الشامية . وسيأتي ذكر فروع كل منها .

الطبقة الثانية : اعراب الحاضرة الذين يسمون في انحاء حلب وحماة وحمص ودمشق « عربان الديرة » او « الرعية » وفي انحاء دير الزور والجزيرة « شوايا » . وهؤلاء ايضاً اهل وبر وخيل ، لكنهم قسمان : قسم لا يرتزق الا بالضرع اي بارعاء الماشية من الغنم والمعز فقط . وهذه الماشية اما ان تكون لهم وحدهم ، واما ان تكون لأهل مدن حلب وحماة وحمص ودمشق ودير الزور وغيرها يشاركونهم في تربيتها والمتاجرة بصوفها وسمنها التي تدر عليهم وعلى شركائهم في سني الخصب ثروة غير يسيرة . ويسمي الافرنج

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا القسم من الأعراب بالغنامة او النصف رحل او النصف حضر . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر دون غيرها ليتمكنوا من الظعن وراء الماشية . والقسم الثاني يضم الى الضرع امتلاك الضياع والاراضين واستثمارها بالحرث والزرع ، فهم يقبلون من جهة على الزرع خوفاً من ان تقضي أعوام الصقيع على الماشية او ينقض عليها غزو ينهبها او مرض يهلكها ، ويظلون متعلقين بأهداب الضرع اما لصغر مساحة الأرض التي يملكونها او لكثرة ما ينتاب الزروع من الآفات كالجراد والمحل وعيث البادية وغير ذلك ، ولأنهم لم يتجردوا بعد عن أطوار البداوة وهوى الحل والترحال . وهم بعد ان ينتهوا من بذر الزروع الشتوية يرحلون في أواخر الخريف الى البادية انتجاعاً لمرعى غنمهم ودفئهم ويعودون في أواخر الربيع الى منازلهم وضياعهم ليلحقوا اعمال الحصاد والرجاد والدراس للزروع الشتوية والبذر والري والتعهد للزروع الصيفية . وهؤلاء يقطنون بيوت الشعر او قباب اللبن في أنحاء حلب او السبابيط المبنية من أعواد الطرفاء وأغصان عرق السوس في أنحاء سقي الفرات والخابور وغيرهما من انهار الجزيرة . وليس للتقسيم المذكور حد محدود ، فالعشيرة الواحدة قد تكون من القسم الاول او الثاني وحدهما او من القسمين كليهما .

وسبب تسمية اهل هذه الطبقة بعربان الديرة لأنهم مرتبطون بديار خاصة في أطراف الحاضرة ومستقرون ولاسيما اهل القسم الثاني فيها ، ولأنهم حينما يظعنون في الشتاء لا يوغلون في البادية أكثر من ٣٠٠ — ٤٠٠ كيلومتر مراعاةً لمقدرة الغنم ولقرب المناهل والآبار الصالحة لورودها . فأعراب حمص وحماة مثلاً لا يتعدون الخبرات والقعرة « شرقي تدمر » وكثيراً ما يشتون حول جبل البلعاس وجبل العمور ، كما ان أعراب سقي الفرات يشتون حول جبل البشري ، واعراب أنحاء دمشق يشتون في ديرة التلول وحول جبل التنف ، واعراب الجزيرة الفراتية حول جبل عبد العزيز .

واهل هذه الطبقة يشبهون في الجملة الطبقة الاولى في طباع البداوة والجلفة والشعوثة وانتهاك حمى الطبقة الثالثة وفلاحي الحاضرة عند سنوح الغفلة وضعف الدولة . ويختلفون بأنهم لا يعاملون في عرف البادية معاملة اهل الطبقة الاولى فلا يشهر عليهم الحرب ولا يحفظ لهم صحب اي لا يجار الملتجىء اليهم ، بل لما كانوا « رعية » و « شوايا » يؤكلون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولا يأكلون . فكأن الطبقة الاولى كالدول المستقلة تمام الاستقلال من الاوربيين تعامل بجميع قواعد حقوق الدول ، والطبقة الثانية كالدول المستقلة من الشرقيين يحافظ على عهودها وتحترم ذمتها بحسب قوتها ومنعتها ، والطبقة الثالثة كالدول التي لم يصادق على استقلالها او كالامارات المحمية . ويختلفون ايضاً بان لهم استعداداً بارزاً للتحضر فقد صار بعضهم اهل مدر اي اصحاب قرى وضياع يقطنون فيها ويستثمرون أرضها ، ولآخرين منهم علائق جمة مع تجار الماشية او التجار السوقة في المدن والحواضر يشاركونهم في تربية الغنم او زراعة الحبوب ، وهم يؤدون للدولة عدا ضريبة الأغنام العشر عن الزروع والخراج عن الأرضين .

والطبقة الثالثة أيضاً قسمان ؛ قسم يشبه أهل القسم الاول الذي ذكرناه في بحث الطبقة الثانية بأن فيه أهل ضرع ووبر يربون الماشية ويقطنون بيوت الشعر ويرتزقون من مشاركة صغار السوقة في المدن او الزراع في القرى ومراكز الاقضية ويدعون « شكارة » بتشديد الكاف على أنهم يختلفون عن أولئك بأنهم لا يؤلفون عشائر ذات شأن بل أحياء صغيرة منفردة ضعيفة الحول والطول ، قليلة العدد والقوة ، وضيعة الارومة والمكانة ، وبأنهم لا يظعنون الى البادية بل يتنقلون حسب الفصول ووجود المرعى في الهضاب والاودية الخالية والبراري والحقول البائرة الممتدة قرب منازلهم او ضمن حدودها او حدود مواطن شركائهم . ولا يخلو قضاء من أقضية بلاد الشام في ساحلها وداخلها من هؤلاء الاعراب الرعاة . وقسم فيه الاعراب الفلاحون « الفلاليح » الذين تركوا الحل والترحال وشن الغارات وايقنوا ان العيش الثابت خير من المتنقل ، وأن من يلجأ لحمى الدولة أهنأ بالاً ممن يتكل في حمايته على نفسه وعصبيته فعمروا الخرب الداثرة ، وهجروا بيوت الشعر الا قليلا وصاروا أهل مدر اي انهم قطنوا بيوت الحجر او القباب وتوفروا على الحرث والزرع أكثر من تربية الماشية .

من هؤلاء في شمالي الشام القاطنون في قرى « املاك الدولة » في أقضية منبج والباب وجبل الاحص ومطخ قنسرين وسهل العمق وسهل الروج وسهل الغاب وفي أنحاء ادلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعرمين و كورة العلا وفى أقضية حماه وسلمية وحمص والنبك والقنيطرة والزوية وحوران وجبل الدروز وغوطة دمشق ومرجها ... ممن تعددت اسماؤهم واتضعت أنسابهم وأحسابهم. وأهل هذه الطبقة أيضاً وان كانوا يعشون دائماً المدن والقرى ويشاركون أهلها ويعاشرونهم ويتصلون بمرافقها ومراتعها لكنهم مابرحوا محتفظين بقسم غير يسير من خصال البادية كالخشونة والرعونة فهم يتمسكون بالقشافة المدقعة والجهالة المطبقة ويتوانون عن العمل الصالح في الزرع والحرث ولاسيما في الغرس .

(يتبع) وصفى زكريا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net